عبد اللّه الغذامي من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي

د/ بوجلال نادية
قسم الفلسفة ،جامعة الجزائر2

الملخص:

لقد قرأ الغذامي الشعر العربي قراءة ثقافية لا تهتم بالجمال بقدر ما تهتم بإظهار القيم النسقية للذات الشاعرة، إنها محاولة جريئة دشن من خلالها ما أسماه النقد الثقافي، الذي يتجاوز كل ما هو جميل في النصوص الأدبية إلى الكشف عن المضمر النسقي في البنية الأدبية التي تشكل بنية الثقافة السائدة التي تحمل في خطابها الجمالي قيما لا أخلاقية.

اعتمد منهجية الحفر لاستقطاب الأسباب التاريخية والسياسية والجمالي في محاولة رصد مصادر الخلل النسقي في تكوين الذات العربية، وعيوب الشخصية الثقافية ومارس فعل التعرية على مضامينها وكشف انماطها وكيف تترسخ عليها الهيمنة عبر وسائل الإنتاج الثقافي والاجتماعي.

الغذامي باعتباره نموذجا للدراسات الثقافية العربية كيف يحدد مفهوم النقد الثقافي كمنهج لقراءة النص التراثي؟ وكيف يرسي مشروعه النقدي بوصفه بدلا للنقد الأدبي؟

Résumé

Abdallah Elghadhami de la critique litteraire a la critique culturelle

Abdallah Elghadami a lu la poesie arabe d une lecture culturelle qui n a pas mit le beau en concederation autant que les valeurs systemiques avec le poete ; c est un essai audacieux pour etablir ce qu il appelle la critique culturelle qui trenscende tout ce qui est beau dans les textes litteaires pour reveler l opto implicite dans la structure opto-litteraire qui forme la structure culturelle qui tient dans son discours esthetique des valeurs immorales.

Elghadami adopte un systhem archeologique pour connaitre les raisons historiques ;politiques et esthetiques ; dans une tentative de controler les sources de desequilibre dans l auto-formation opto-arabe,et les defauts personnels et culturels, il a exerce le fait archeologique sur son contenu pour reveler cesmodeles,et montrer comment retranche la domination par divers moyens de producation culturelle et sociale enracinees .

Elghadhami comme modele d etudes culturelles arabes comment determiner le concept de la critique culturelle comme un moyen de lire le texte patrimoine ? et son projet de critique comme alternative a la critique litteraire ?

المقدمة:

يعد النقد الثقافي مظهرا من أهم المظاهر التي رافقت ما بعد الحداثة في مجال الأدب والنقد،وطرحا جديدا يعني بالأدب باعتباره ظاهرة لسانية شكلية،وفنية جمالية، وشعرية بلاغية، ومن ثمة استهدفت النقد الثقافي تقويض البلاغة والنقد الأدبي معا، وبناء بديل منهجي بغيته الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة ودراستها في سياقها الثقافي والاجتماعي والسياسي والتاريخي والمؤسساتي والوقوف عليها فهما وتفسيرا، وقد تأثر المنهج الثقافي بمنهجية جاك دريدا التفكيكية القائمة على التقويض والتشريح من أجل استخراج الأنساق الثقافية المهيمنة أو المهمشة،كما تأثر بمدارس فلسفية وفكرية أخرى كالماركسية الجديدة والتاريخانية والنقد الكولونيالي والنقد النسوي وغيرها.

إذن النقد الثقافي ثورة منهجية جديدة في عالم النقد الأدبي تبدأ من تلك المفاهيم والمسلمات التي تقبلناها دون نقاش على أنها أحكام صحيحة ويقينية، وعبد الله الغذامي باعتباره رائد النقد الثقافي في الوطن العربي كيف يصحح هذه المفاهيم الخاطئة في ضوء المقاربة الثقافية؟ وما منهجيته في ذلك؟ وكيف أرسى قواعد مشروعه النقدي باعتباره مشروعا نقديا بكرا؟ لكن قبل الإجابة على هذه القضايا والمسائل لابد من تحديد بعض المفاهيم ذات الصلة بالموضوع كمعنى النقد الثقافي وتطوره تاريخيا وما هي دعائمه ومرتكزاته...الخ.

. النقد الثقافي الدلالة والمفهوم:

يعرف سعيد اليازعي وميجان الروسيلي النقد الثقافي في كتاب دليل الناقد الأدبي بقولهما أنه "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره، ويعبّر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها"[1]. وهو بهذا المعنى تحليل النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وبيوطيقية، ويعني بالمؤلف والسياق والقصدية والقارئ

[1]- سعيد اليازعي وميجان الروسيلي، ص 305.

والناقد. وينطلق الناقد من النص أو الخطاب باعتباره علامة ثقافية وسياسية واجتماعية تحمل مقاصد مباشرة وغير مباشرة قبل أن يكون علامة جمالية أو فنية أو شكلية، ومن ثمة يهدف النقد الثقافي إلى كشف العيوب النسقية التي توجد في الثقافة والسلوك بعيدا عن الخصائص الجمالية والفنية، وعليه يمكن القول أنه يعني "فعل الكشف عن الأنساق وتعرية الخطابات المؤسساتية، والتعرف على أساليبها في ترسيخ هيمنتها وفرض شروطها على الذائقة الحضارية للأمد"[2].

وبذلك يصبح موضوع النقد الثقافي هو النص الأدبي لا من الناحية الجمالية، بل من حيث علاقته بالإيديولوجيات والمؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ويقوم بالكشف عنها وتحليلها بعد عملية التشريح النصية"[3].وبهذا المعنى يكون كل خطاب وكل نص صالح لدخوله في النقد الثقافي بعيدا عن الانتقائية وتعالي النصوص على بعضها البعض ويتساوى فيها النجنوى والعامي أوالشعبي.

. **تاريخية النقد الثقافي:**

ما ظهر من ممارسات نقدية في أوروبا في القرن 18م، لم يكن إلا مجرد محاولات ناقصة من الناحية المعرفية والناحية المنهجية. لكن مع بداية التسعينات من القرن العشرين دعا الأمريكي فنسنت ليتش إلى نقد ثقافي ما بعد بنيوي، وعدم حصره في الممارسات الأدبية، وتناول مختلف الأوجه الثقافية خاصة تلك التي يهملها النقد الأدبي، وقبله سنة 1964 بدأت دراسات ثقافية مع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة لبرمنجهام الذي صاحبت دراساته النظريات النقدية

---

[2] - توم بوتومور،**مدرسة فرانكفورت**،تر:سعدهجرس،دار الكتب الوطنية،ليبيا،ط2،2004،ص 110.

[3] - يوسف عبد الله الأنصاري، **النقد الثقافي وأسئلة المتلقي**، جامعة أم القرى، 2008. Nqu.edu.sa/page/ar/84250

التي ارتكزت على النصوص واللسانيات، وتحوّلات ما بعد البنيوية، وقد استندت على 4 مصادر: تاريخية وفلسفية وسوسيولوجية وأدبية نقدية.

بيد أن الظهور الحقيقي للنقد الثقافي تحقق في الثمانينات في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1985م بعدما استفاد من البنيوية اللسانية،ونقد الجنوسة والانثربولوجيا والتفكيكية،ونقد ما بعد الحداثة،والحركة النسوية وأطروحات ما بعد الاستعمارية.

ومع إصدار فنسنت ليتش لكتابه "النقد الثقافي: نظرية الأدب لما بعد الحداثة" تبلور منهجيا بعدما جعل مقصده دراسة الخطاب الأدبي على ضوء التاريخ والسوسيولوجيا، والسياسة، والمؤسساتية، ومناهج النقد الأدبي معتمدا على استقراء التاريخ والتأويل التفكيكي والمناهج الأدبية لتعرية الخطابات، وتقويم أنظمتها التواصلية، ورصد الأبعاد الإيديولوجية الكامنة وراء النص. ولا يكتفي بذلك بل عمل على نقد المؤسسة الأدبية التي توجه أذواق القرّاء لما ترتضيه من نصوص بغية التأثير على طريقة التلقي والاستجابة لدى القارئ، وقد تأثر بميشال فوكو وجيل دلوز وليوتار، ويضيف لجاك دريدا مصطلح التأسيس إلى جانب مصطلح التقويض.[4]

. عبد الله الغذامي ومفهوم النقد الثقافي:

هو عبد الله محمد الغذامي الشمري، ولد سنة 1946 بعينزة من منطقة القصيم، تحصّل على درجة الدكتوراه من جامعة اكستر البريطانية، يشغل حاليا منصب أستاذ النقد والنظرية بجامعة الملك سعود بالرياض، له العديد من الكتابات والمؤلفات منها:

1- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية 1985.

2- تشريح النص : مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة 1987.

[4]- عبد العزيز حمودة،**الخروج من التيه:دراسة في سلطة النص**،سلسلة عالم المعرفة 298، الكويت 2003،ص 89

3- الصوت القديم الجديد : بحث في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث 1987.

4- الموقف من الحداثة 1987.

5- الكتابة ضد الكتابة 1991.

6- ثقافة الأسئلة : مقالات في النقد والنظرية 1992.

7- القصيدة والنص المضاد 1994

8- المرأة واللغة 1997.

9- ثقافة الوهم : مقاربات عن المرأة واللغة الجسد 1998.

10- تأنيث القصية والقارئ المختلف 1999.

11- النقد الثقافي : قراءة في الأنساق الثقافية العربية 2000.

12- حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية 2002.

13- الثقافة التلفزيونية 2004.

14. نقد ثقافي أم نقد أدبي مع عبد النبي أصطيف ضمن حوارات لقرن جديد2004 [5].

وعبد الله الغذامي هو أول من حاول تبني مفهوم النقد الذي جاء به فنسنت ليتش بمعناه وأدواته، ليتجاوز مدارس النقد الأدبي السابقة التي عجزت عن اكتشاف الظواهر الثقافية العربية، فكيف يحدد مفهوم النقد الثقافي وما هي حدوده ؟

. مفهوم النقد الثقافي عند العذامي :

يعرف الغذامي النقد الثقافي بأنه : " فرع من فروع النقد النصوص العام، وهو أحد علوم اللغة، وحقول الألسنية، بمعنى أنه ينقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي، وغير مؤسساتي ودور كل منهما في حساب المتلقي الثقافي الجمعي، وعليه فالنقد الثقافي

[5]- http://ar.m.wikipédia.org/wiki%1.

غير معني بكشف الجمالي فحسب بل كشف المضمر تحت أقنعة البلاغي وكشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي " [6].

ولزيادة الفهم يقارن الغذامي بين مفهوم النقد الثقافي ومفهوم العلل عند أهل الحديث لتشابه الغرض بين العلمين حيث يقول :"هو إذن نوع من علم العلل كما عند أهل مصطلح الحديث، وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب ويكشف عن سقطات في المتن أو في السند،مما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة وصارمة،ولا شك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجًا قادرًا على تشريع النصوص، واستخراج الأنساق المضمرة، ورصد حركتها، وكذا هي الجماليات البلاغية تضمر أضرارها وقبحياتها والحاجة إلى كشف ذلك يصبح هما نقديا مشروعا وضروريا"[7].

والنص هو مجال النقد الثقافي ليس من باب أنه نص أدبي جمالي فقط، وإنما لأنه حادثة ثقافية، ولا يقرأ لذاته ولجماليته بل كحامل نسق أو أنساق مضمرة يصعب رؤيتها من خلال القراءة السطحية لأنها تختفي وراء سحر الظاهر الجمالي، وعليه تكون مهمة الناقد الوقوف على الأنساق المضمرة وليس الدلالات الصريحة للنص.

والنقد الثقافي كذلك هو الكشف عن الحيل التي تستعملها الثقافة لتمرير أنساقها، أقنعة ووسائل خاصة تتخذ من الجمال والبلاغة أغطية وهذه الأنساق المضمرة هو السبيل الذي يقودنا إلى العيوب الحضارية للعالم العربي الإسلامي وبالتالي الوقوف على العراقيل التي تعترض سبيل النهضة العربية.

. منهجه:

[6]– عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي : قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2001، ص. 83-84.

[7]– نفسه، الصفحة نفسها.

إذا كان النسق المضمر هو السبيل إلى استكشاف العيوب الحضارية للعالم الإسلامي العربي والعراقيل التي تقف حجر عثرة وراء نهضته فما هي منهجية الغذامي في قراءة النسق المضمر في الثقافة العربية وما هي آلياته في ذلك؟

لقد اعتمد الغذامي في قراءة الأنساق المضمرة في الثقافة العربية على منهج القراءة التأويلية التي تحول من المجاز مثلا قيمة ثقافية بعد أن يكون قيمة بلاغية، ويغدو ذو دلالتين، دلالة حاضرة في اللغة الظاهرة ودلالة مضمرة، يقول:

"ونحن نسعى في مشروعنا إلى تخصيص مصطلح" النقد الثقافي" ليكون مصطلحا قائما على منهجية أدواتية وإجرائية تخصه أولا، ثم هي تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات استقبال النص الجمالي، من حيث أنه المضمر النسقي لا يتبدى على سطح اللغة، ولكنه نسق مضمر تمكن مع الزمن من الاختباء، وتمكن من اصطناع الحيل في التخفي، حتى ليتخفى على كتاب النصوص من كبار المبدعين والتجديديين، وسيبدو الحداثي رجعيا بسبب سلطة النسق المضمر عليه".[8]

ويستند منهج النقد الثقافي على جملة من الخطوات تمكن من مقاربة النصوص والخطابات الثقافية فهمًا وتحليلاً وتتمثل فيما يلي:

- طرح أسئلة جديدة كسؤال النص، وسؤال المضمر، وسؤال الاستهلاك الجماهيري، وسؤال ثنائية المركز والتهميش، وسؤال العمومي والخصوصي.
- الابتعاد عن حدود الكلمات المباشرة وربط النص بمحيطه الثقافي فهو منتج ثقافي يؤثر ويتأثر بغيره.
- اتخاذ الخطاب الذي يحظى بمقروئية عريضة من الناس بغض النظر عن شكله شعرا كان أم نثرا.
- الاستفادة من العلوم الإنسانية المرتبطة بأشكال الخطاب المنقود.

---

[8]- الغذامي، **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ط1، 2000، ص 95.

– البحث فيما وراء الخطاب من مضمر نسقي للوصول إلى الجوانب المادية والروحية والفكرية والعاطفية.

– الإلمام بسيرة الشاعر وثقافته ونصه.

– الربط بين اللغة والنص والثقافة.

– معرفة الدلالات النسقية الموجودة في الجملة الثقافية والمستترة خلف البهرجة اللفظية وجماليات البلاغة.

– القدرة على تأويل الرموز والأقنعة وتحليلها.

– الكشف عن المثاقفة التي تعبر عن اتصال ثقافتين مختلفتين بحيث يفرض هذا الاتصال تغييرا في الثقافة السائدة.

– عدم إهمال الجانب الجمالي لأن عنصر ثقافي يضاف إلى العناصر الأخرى في الخطاب المنقود[9].

وهكذا يمر النقد الثقافي من النص أو الخطاب باعتباره حاملا للعلامات الثقافية في شكل جمالي فني يخفي أنساقا ثقافية مضمرة ذات الدلالات النسقية من بلاغة ومحاز كلي وتورية نسقية، واكتشاف التأثيرات التي تخلفها هذه الأنساق المضمرة، وبذلك يتحقق الانتقال من الفهم والشرح إلى التأويل الثقافي، ويمكن حصر خطوات منهج النقد الثقافي هذا في المراحل التالية:

1- مرحلة المناص الثقافي وتدرس فيها كل العتبات الثقافية من مؤلف وعنوان ومقدمة وإهداءات وسياق وهوامش ومقتبسات وصور وأيقونات، ووسائط إعلامية من أجل استخلاص الأبعاد الثقافية.

2- مرحلة التشريح الداخلي وهي مرحلة شرح وتحليل وتفكيك جمالي وبنيوي وسيميائي وأسلوبي لفهم ما هو ثقافي بعد ذلك.

---

[9]– جميل حمداوي، **النقد الثقافي بين المطرقة والسندان**، أقلام الديوان يناير 2012. www.diwanalarab.com.

3- مرحلة الرص الثقافي وفيها نستعين بالعلوم الإنسانية كالتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم الثقافة وعلم النفس والنقد الأدبي في استجلاء الأبعاد الثقافية ونقد الأوهام والأساطير المؤسساتية.[10]

. منهج النقد وتطبيقاته:

يعتبر عبد الله الغذامي من أكبر النقاد العرب الذين تبنوا منهج النقد الثقافي، وطبقه على الثقافة العربية وأولى نصوص في هذا المضمار عبارة عن دراسة لخصائص شعر حمزة شحاته الموسومة بالخطيئة والتفكير: من البنيوية إلى التشريحية، وكتاب: "حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية" ونصوص أخرى مثل: تشريح النص، الصوت الجديد القديم، الموقف من الحداثة، الكتابة ضد الكتابة وثقافة الأسئلة، القصيدة والنص المضاد، المشاكلة والاختلاف، المرأة واللغة والقارئ والمختلف، وكلّها نصوص أثارت جدلا واسعا وصوتا من الأصوات المجددة في المشهد الثقافي العربي.

أما في كتابة "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية" فقد كان طرحا جريئا وجديدا لفكرة النقد الثقافي والتنظيم النقدي التي جعلها منها مدخلا لفهم العيوب النسقية في الشعر العربي باعتباره ديوان العرب وخطابهم، ولم يكتف بالشعر فقط بل راح يتبع هذه العيوب في كتب التاريخ والدواوين الشعرية والحداثة العربية، وقد حاول الغذامي في هذا الكتاب مقاربة الثقافة العربية ودراستها وفق آليات المنهج الثقافي بما توفر فيها من نصوص شعرية بما فيها الشعر النبطي أو أدبيات شعرية أخرى أو نصوص نثرية على اختلاف مواضيعها.

والغذامي يطبّق منهجيته النقدية الثقافية على الشعر العربي الحديث والقديم والمعاصر متخذا من أشعار المتنبي وأبي تمام ونزار قباني ولادونيس نماذج له، وانتهى من خلال هذه الدراسة إلى أن الشعر العربي عند هؤلاء شعر الفحولة والطاغية الذكوري وهذه حال شعر الحداثة يقول: "...حق صار النموذج الشعري

---

[10]- هاني علي سعيد، **مسارات النقد الثقافي**، الرافد، دائرة الإعلام والثقافة. www.arrafid.ac/m10.hotml.

هو الصيغة الجوهرية في المسلك والرؤية، مما سمح للنسق الفحولي التسلطي والفردي بأن يظل هو النهج والخطة"[11]. ويقول أيضا: "كبار مبدعينا كأبي تمام والمتنبي ونزار قباني وأدونيس حيث نكتشف ما تنطوي عليه نصوصهم من أنساق مضمرة تنبئ عن منظومة طبقية / فحولية / رجعية / استبدادية، وكلها أنساق مضمرة لم تك في وعي أي منهم، ولا في وعي أي منّا، ونحن وهم ضحايا ونتائج بهذه الأنساق اللاإنسانية واللاحضارية تتسرب في ضميرنا الثقافي دون كشف أو ملاحظة، حتى لنجد تماثلا مخيفا بين الفعل الشعري والطاغية السياسي والاجتماعي مما هو لب النسق وبؤرته غير الملحوظة، وقد آن الأوان لممارستنا النقدية بأن تتحرك باتجاه نقد الخطاب الإبداعي، من بوابة النقد الثقافي لتكشف ما يهمله الإبداع، لا من جماليات نسلم بها، ولكن من قبحيات نسقية لم نكن ننتبه لها".[12]

ويقول أيضا مؤكدا ان الشعر العربي الحداثي مع أدونيس ونزار قباني استمرار لشعر الفحولة وهو شعر رجعي لا غير: "كما حدث في تعبير خطاب الحب وشعريته، فإن خطاب الحداثة العربية ما إن نشأ على يد امرأة هي نازك الملائكة، وبدأ مشروع في تأنيث القصيدة، وبرز شعراء ذكور يؤسسون لنسق جديد إنساني ومناهض للفحولة كالسيّاب، ما إن ظهر حتى توسلت الثقافة بحراسها وأظهرت لنا شعراء أعادوا تفحيل القصيدة، واستعادوا قيم النسق الفحولي المتشعرن مثل أدونيس الذي يبدو على السطح حداثيا تنويريا غير أنه شاعر نسقي فحولي، وغير هذا لم تعد الحداثة مشروع تغيير، بل صارت مشروع تنسيق، أي غرس النسق

[11]– عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، مصدر سابق، ص 167.

[12]– عبد الله الغذامي، **نقد ثقافي أو نقد أدبي**، ص 164.

وتعزيزه كما كان أو أكثر – وهذه كلها دلالات على طريقة مسار النسق وتمركزه حتى ليقضي على كل محاولة للخروج منه".[13]

وبهذا يكون الغذامي قد طبق نقده الثقافي على نماذج شعرية متنوعة لحقب زمنية مختلفة، وقدّم قراءات لأنساق ثقافية متباينة للمتنبي وأبي تمام وآدونيس ونزار قباني، وخاض فيما وراء الشكل الجمالي وكشف عن المزين والمختبئ منها.[14]

كما طبق نقده على المسجد الأموي باعتباره محل ثقافي لا نستطيع قراءاته بعيدا عن التاريخ والسلطة، وهو نسق مضاد لهما، يقول: "سنرى أن النص أو الجملة الثقافية أي الجامع الأموي هو نسق مضاد للسلطة والتاريخ ولذا صار شعبيا من جهة، وذا رمزية غير تاريخية من جهة ثانية ... وكل ما فيه هو رمز بات لا تاريخية أو لا واقعية، وسيجد المرء صعوبة أو استحالة في تقرير الواقع التاريخي للمكان ولمفردات المكان بدءا من تاريخ جدرانه وأصولها، وحقيقة القبر وحقائق المسميات داخل الجامع وقصص المكان وحكاياته".[15]

بمعنى أن الجامع الأموي قيمة رمزية ذو وظائف جمالية وتداولية تختبئ تحتها دلالات نسقية تخبئ المضمر الثقافي الذي ينبئ عن رفض صامت للسلطة والتاريخ، وإن كان تشييده إشادة بالسلطة والتاريخ، وهذا يفسر غياب المكان التاريخي والسلطوي مثل القصور وبقاء الرمزي الشعبي مثل قبر بني أو ولي أو درويش أو شيخ أو امرأة عابدة لم يكن لها ملك يوما ما.

---

[13]– تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 135.

[14]– الغذامي، **النقد الثقافي**، مصدر سابق، ص ص.177-248.

[15]– الغذامي، **النقد الثقافي رؤية جديدة**،أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي،القاهرة، ص9.

لقد اتخذ الغذامي الجامع الأموي كنموذج معياري وطبّق عليه التحليل الثقافي باعتباره نموذج له شهرته في الثقافة العربية تحول إلى نصّ قابل للتحليل والقراءة حسب المستويات التالية:

– القيمة النحوية: وهي تختزل وظائف الجامع الأموي النفعية، كونه مكان للعبادة وقراءة القرآن، وتلقي الدروس والاسترخاء وكلّها وظائف نفعية، وأي خلط في هذه الوظائف هو خلل في النص.

– الدلالة الجمالية: فالمبنى جميل به نقوش ورسومات تشبه البديع والبلاغة في النص الأدبي، ويشترك الجميع في تلقي وظيفته سواء كانوا من المنتفعين بقيمته النحوية أم لا، والنقد الأدبي يقف عند هذه الوظيفة وهي الكشف عن العيوب التي لا تضر بالوظيفة الجمالية.

– الجملة الثقافية: يتحول المسجد إلى جملة ثقافية تكشف علامات ثقافية وأهمها نسبة المكان إلى العصر الأموي التي تمثل حقبة عربية إسلامية، ويحمل خطابا يمثل حالة تحوّل جذري في تكوين الأمة، وعلامة على تحوّل الخلافة الإسلامية إلى ملك، ومن الضروري التساؤل عن سبب بقاء هذا المكان من العقبة الأموية رغم زوال القصور والعمارات التي شيدهما بني أمية.

وبذلك يرى الغذامي أن النسق المضمر في الجامع الأموي نسق مضاد إذن للسلطة والتاريخ فكل ما فيه ليس أمويا من قبر يحي عليه السلام على قبر الحسين بن علي، وهذا ما جعله يقول: "في حين أننا نسعى هنا إلى تخصيص مصطلح النقد الثقافي" كمصطلح قائم على منهجية ذات أدوات إجرائية تخصّه أولا، ثم إنها ثانيا تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات استقبال النص الإجمالي من حيث المضمر النسقي الذي لا يتبدل على سطح اللغة ولكنه نسق خفي يمكن على كتابة

النصوص من كبار المبدعين والتجديديين على حد سيبدو معه الحداثي رجعيا، وذلك نتيجة سلطة النسق المضمر عليه".[16]

والنسق إفراز ثقافي يمر عبر الجماليات البلاغية ويستهلكه الجمهور ويعرفه الغذامي بقوله:"وهو مضمر نسقي ثقافي لم يكتبه كاتب فرد وجد عبر عمليات من التراكم والتواتر حتى صار عنصرا نسقيا يتلبس بالخطاب ورعية الخطاب من مؤلفين وقراء".

. بين نقد الثقافة والنقد الثقافي:

النقد الثقافي ونقد الثقافة هل هما مفهومات مختلفان أم أن لهما دلالة واحدة؟ إذا كان النقد الثقافي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجمالية والفنية ويحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية منتميا إلى نظرية الأدب، فإن نقد الثقافة ينتمي إلى الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع والفلسفة والإعلام وغيرها من الحقول المعرفية الأخرى ويمير بينهما الغذامي قائلا: "ونميّز هنا بين نقد الثقافة والنقد الثقافي حيث تكثر المشاريع البحثية في ثقافتنا العربية من تلك التي عرضت وتعرض قضايا الفكر والمجتمع والسياسة والثقافة عامة وهي مشاريع لها إسهامات المهمة والقوية، وهذا كله يأتي تحت يسمى "نقد الثقافة".[17]

ويرى الغذامي أن الالتباس بين نقد الثقافة والنقد الثقافي لم يكن على مستوى المفهوم فحسب بل على مستوى المنهج كذلك يقول:"نحن نسعى في مشروعنا إلى تخصيص مصطلح النقد الثقافي ليكون مصطلحا قائما على منهجية أدواتية وإجرائية تخصه".[18]

. من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي:

---

[16]- الغذامي وعبد النبي أصطيف، **نقد ثقافي أم أربي**، ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط1، دار الفكر، دمشق 2004، ص 161.

[17]- عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص 117.

[18]- نفسه، ص 112.

بدأ التمييز بين النقد الأدبي والنقد الثقافي مع فنسنت ليتش، والاعتراف بنقاط التقاء بينهما، ويذهب البعض أن النقد الأدبي يهمل العديد من المظاهر التي يستأثر بها النقد الثقافي كمظاهر الثقافة الشعبية أو الجماهيرية، أما الغذامي فينسب النقد الأدبي إلى الثقافة، ويرى ويرى أن النقد الأدبي في الثقافة العربية قد ترعرع في أحضان البلاغة ولذا أصبح فتا في البلاغة يعني بجمالية النصوص، والوقوف على مكونات أدبياتها أو كشف عوائقها، غير أنه يرى أن النقد الأدبي قديما وحديثا لم يتعامل مع النصوص التي تعترف المؤسسة الثقافية الرسمية بأدبياتها وجمالها، واستبعد النصوص، والظواهر الثقافية التي لا تحضى باستحسان المؤسسة التي وضعت المعايير الصارمة للحكم على ما هو جمالي وما هو غير جمالي وهذا أدى إلى استحسان ما يميل عليه الجمهور من جهة، وإلى عدم الكشف عن القبع الذي سيترتحت غطاء البلاغة من جهة ثانية.

ولا يقف الغذامي عند فكرة التقاطع بين النقد الأدبي والنقد الثقافي فحسب بل آمن بإمكانية توسيع دائرة النقد لتشمل كل ما هو ثقافي وروحي وحياتي. وهذا أكثر وواقعنا، صار لابد من محوها عبر قناة النقد الثقافي الذي يشمل وجوها عديدة من الحياة وليس الأدب فقط..." [19].

وهذا التدرج أو المرحلية التي لابد أن يمر بها النقد الثقافي مرحلية طبيعية قد سبق ومر بها في العالم الغربي يقول: "لقد تدرجت النقلات النوعية في مجال النظر النقدي من أطروحة ريتشاردز في التعامل مع القول الأدبي بوصفه "عملا" إلى رولان بارت الذي حوّل التصوّر من "العمل" إلى النص ووقوفه على الشفرات الثقافية [...] وتأسيس وعي نظري في نقد الخط بات الثقافية والأنساق الذهنية

[19]– عبد الله الغذامي وعبد النبي أصطيف، **نقد ثقافي أم نقد أدبي**، ص 6.

[...] بدلا من الوقوف على مجرّد حقيقته – النص – الجوهرية التاريخية أو الجمالية".[20]

كما يرى الغذامي أن النقد الأدبي قد بلغ سن اليأس ولذا لابّد من بديل له، وكذا بالنسبة للبلاغة التي وصلت بعلومها الثلاثة – بيان ومعاني وبديع، إلى مرحلة العجز والموت ويستحسن إلغاءهما من البرامج التعليمية، يقول: "مازلنا ندرس طلابا في المدارس والجامعات ..... البلاغة بعلومها الثلاثة، ولا نفي أن ما ندرسه لهم هو علم لم يعد يصلح لشيء فلا هو أداة نقدية صالحة للتوظيف، ولا هو أساس بمعرفة ذوقية أو تبصر جمالي، وإن كانت قديما كذلك، إلا أنها لم تعد أساسا لتصور، ولا لتذوق، ومن ذا يحتاج إلى رصد الكنايات والجناسات والطبقات في أي نص، ومن ذا يحتاج إليها لتذوق أي نص أو تعرف صيغه ودلالاته"[21]. ويشير إلى المفارقة بين البلاغة والتراث حيث أن المساس بها يعني المساس بالتراث، ولذا عجز المثقف العربي عن تجاوزها كموروث لم يعد خادما للثقافة العربية الإسلامية بل عاملا من عوامل الإعاقة النهضوية فـ "نحن في الجامعات ندرس طلابنا وطالباتنا كل ما هو نقيض لهذه البلاغة، ومتجاوز لها، ولكننا لا نجرؤ على إلغاء مقررات البلاغة، وقد نظن أن إلغاءها سيكون بمثابة الانتحار المعرفي أو التآمر ضد التراث، وضد ضائقة الأمة، تتصنم العلوم مثلما تتصنّم الأشخاص حتى لتبلغ حد القداسة".[22]

ولكنه يحكم على النقد الأدبي حكما يخرجه من دائرة النقد ذو الفاعلية الإيجابية سواء القديم منه أو الحديث ذلك أنه بلغ مرحلة العجز وعدم القدرة

---

[20]– عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه – دراسة في سلسلة النص –** سلسلة عالم المعرفة 298، الكويت 2003، ص 120.

[21]– عبد الله الغذامي وعبد النبي اصطيف، **نقد ثقافي أم نقد أدبي**، ص 6.

[22]– عبد الله الغذامي وحفتاوي بعلي، **مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 215.

على الاستجابة لمتغيرات الثقافية والمعرفة يقول: "وأنا أرى أن النقد الأدبي كما نعهده وبمدارسه القديمة والحديثة قد بلغ حدّ النضج أو سن اليأس حتى لم يعد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي سنشهده الآن عالميا، وعربيا، بما أننا جزء من العالم متأثرون به ومنفعلون بمتغيراته...".[23]

ولا يكتفي الغذامي بإعلان حالة العجز والوهن التي أصابت النقد الأدبي لبلوغه سن اليأس، وإنما يعلن موت ويختزل مشروعه الحداثي في النقد الثقافي كبديل للنقد الأدبي في قوله: "وأبدأ بما صار يأتيني من أسئلة حول مشروعي في النقد الثقافي، وعن كونه بديلا عن النقد الأدبي وعن إعلان موت النقد الأدبي"[24]. ولا يموت هذا الأخير إلا بإخراج النقد الثقافي من سلطته لأن هذه السلطة قيد مؤسساتي ينبغي التحرر منه يقول: "على أن الأداة النقدية كمصطلح وكنظرية مهيأة لأداء أدوار أخرى غير ما سخرت له على مدى قرون من الممارسة والتنظير من خدمة للجمالي وتمرير له وتسويق لهذا المنتج وفرضه على المستهلك الثقافي، وبما أن الأداء النقدية مهيأة لهذه الأدوار النقدية الثقافية خاصة مع ما تملكه من الخبرة في العمل على النصوص ومع ما مرت به من تدريب وامتحان لفاعليتها في التحليل والتأويل المنضبط والمجرّب، فإن التفريط بها أو التخلي عنها سيحرمنا من وسيلة ناجحة وسيجعلنا خاضعين لسلطة الخطاب المدروس أو لهيمنة المقولة الفلسفية التي يستند إليها تفكيرنا".[25]

لقد أدى النقد الأدبي إذن دوره في الوقوف على جماليات النص الأدبي وعلمنا كيف نتذوقها معا أوقعنا في العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية التي تظل مختبئة تحت عباءة الجمالي والشعري والبلاغي حتى صارت سلوكا يتحكّم ذهنيا وعمليا، وصارت نماذجنا الراقية بلاغيا هي مصدر الخلل النسقي. ولكشف

---

[23]– عبد الله الغذامي وعبد النبي أصطيف، **نقد ثقافي أم نقد أدبي**، ص 12.

[24]– المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[25]– نفسه، ص 61.

هذا الخلل الثقافي استدعى الغذامي النقد الثقافي بعد إعلانه موت النقد الأدبي لا باعتباره يستحق الموت وإنما بتحويل الأداة النقدية من قراءة للجمالي الخالص وتسويقه دون كشف عيوبه النسقية إلى أداة تنقد الخطاب وتكشف أنساقه بتحويل المنظومة المصطلحية بعدما أرسى القواعد النظرية العلمية ثم كبقها على الأنساق العربية الثقافية التي لبسها الجمالي والبلاغي إلى ما بعد الحداثة حيث اتخذت مظهرا رجعيا.[26]

. المفاهيم الأساسية للنقد الثقافي ومرتكزات:

هي جملة من المبادئ والمفاهيم والثوابت النظرية والتطبيقية والمنهجية التي بني عليها النقد الثقافي، وظيفتها فهم النص وتأويله، وتتمثل هذه المرتكزات فيما يلي:

1. الأنساق المضمرة: وتعني أن النقد الثقافي يهتم بالمضمر في النصوص والخطابات، وتختفي هذه الأنساق تحت عباءة النص الجمالي.

2. المجاز الكلي: يهدف النقد الثقافي إلى استخلاص المجازات الثقافية الكبرى التي تتجاوز المجاز البلاغي والأدبي، وهو ذلك القناع الذي تضعه اللغة لتمر أنساقها الثقافية حتى نصاب بالعمى الثقافي، أي أن الخطاب الثقافي يتحول إلى استعارات ومجازات كلية وتحمل في ثناياها مدلولات ثقافية مباشرة وغير مباشرة، وفيه تنشأ الدلالة النسقية والجملة الثقافية.

أ. الدلالة النسقية: هي الدلالة التي تأتي كبديل للدلالة اللغوية ذلك لقصور هذه الأخيرة عن كشف ما تخبئه اللغة من مخزون دلالي "و هي في المضمر وليست في الوعي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدققة تأخذ بمبدأ النقد الثقافي لكي تكتشفها، ولكي تكتمل منظومة النظر والإجراء".[27]

---

[26]– النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية. www.goodreads.com.

[27]– عبد الله الغذامي، **تأنيث القصيدة والقارئ المختلف**، المركز الثقافي العربي، الدرا البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 178.

ب. الجملة الثقافية: يعتمد النقد الثقافي على ثلاث جمل يميز بينها وهي الجملة النحوية، والجملة الأدبية، والجملة الثقافية "وهي حصيلة الناتج الدلالي للمعطى النسقي، وكشفها يأتي عبر تصور مقولة الدلالة النسقية وهذه الدلالة سوف تتجلى وتتمثل عبر الجملة الثقافية... أي أن الجملة الثقافية دلالة اكتنازية وتعبير مكثف".[28]

وهذا يعني أن الخطاب الثقافي يتحول إلى استعارات ومجازات كلية تحمل في ثناياها مدلولات ومقصديات ثقافية مباشرة وغير مباشرة.

3 . التورية الثقافية: وتعني التورية كشف المضمر الثقافي المختبئ وراء السطور يقول الغذامي: "...أي مصطلح دقيق ومحكم وهو في المعهود منه يعني وجود معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد، والمقصود هو البعيد، وكشفه هو لعبةبلاغية منضبطة. ونحن هنا نوسع من مجال التورية لا لتكون بهذا المعنى البلاغي المحدد، ولكننا نقول بالتورية الثقافية أي أن الخطاب يحمل نسقين لا معنيين واحد هذين النسقين واع والآخر مضمر".[29]

4. المؤلف المزدوج: إنه بين كاتب ينشد الجمال والوعي وبين ثقافة متوارية في شكل أنساق مضمرة غير واعية، وبني هذا وذاك مؤلف آخر يصاحب المؤلف المعهود، وهو الثقافة ذاتها التي تبدع نسقا مضمرا يكشف عنه النقد الثقافي بأدواته تحت نظر المؤلف الذي يبدع نصا جميلا.[30]

وقد عبّر الغذامي عن هذا البناء وأجاب عن سؤال المقاربة بين النقد الثقافي وقراءة التراث العربي الإسلامي في هذا النص الذي يختزل فيه المقدمات ليصل إلى النتائج يقول: "نزعم في عرضنا لمشروع النقد الثقافي أن في الخطاب الأدبي والشعري تحديدا قيها منسقية مضمرة تتسبب في التأسيس لنسق ثقافي

---

[28]- نفسه، ص 180.

[29]- المصدر السابق، ص 180.

[30]- جميل حمداوي.

مهيمن ظلّت الثقافة العربية تعاني منه على مدى مازال قائما، ظلّ هذا النسق غير منقود ولا مكشوف بسبب توسله بالجمالي الأدبي وبسبب عمى النقد الأدبي عن كشفه مذ انشغل النقد الأدبي بالجمالي وشروطه أو عيوب الجمالي، ولم ينشغل بالأنساق المضمرة كنسق الشعرنة".[31] وما الخطاب الشعري أو الأدبي الجمالي إلا أنساق مضمرة تنسخ جملة من القيم الإنسانية وتنقض أخرى يقول: "إن قيما مثل الحرية والاعتراف بالآخر، وتقدير المهمش والمؤنث والعدالة، والإنسانية هي كلها قيما عليا تقول بها أي ثقافة، ولكن تحقيقها عمليا ومسلكيا هو القضية، ولو حدث وكشفنا أن الخطاب الأدبي الجمالي الشعري وغيره يقدّم في مضمره أنساقا تنسخ هذه القيم وتنقض ما هو في وعي أفراد أي ثقافة، فهذا معناه أن في الثقافة عللا نسقية لم تُكتشف وتفضح، ويكون الخطاب متضمنا لها دون وعي من منتجي الخطاب ولا من مستهلكيه".[32]

. الغذامي في ميزان النقاد العرب:

انقسم النقاد العرب إلى فريقين، بين مؤيد للنقد الثقافي ورافض لهذا الدخيل، بين معتبر للعلاقة بين الأدب والثقافة العربية الإسلامية مستند على ما قدّمه من نتائج إيجابية أهمها المساهمة في استعارة ثوابت الأمة والثقافة العربية وما يعبّر عنها من نصوص بوصفها رموزا، واستعادة الذوات الثقافية بوصفها أفكارا مجردة.[33]

أما أولئك الذين رفضوه فقد اعتبروه مشروعا نقديا يمثل مجرّد افتتان بمشروع نقدي غربي تجاوزته الأحداث داخل الثقافة التي أنتجته.[34]

---

[31]- عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص 197.

[32]- نفسه، ص 201.

[33]- محمد عبد المطلب،**ذاكرة النقد الأدبي**،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط2،2008،ص 106.

[34]- عبد العزيز حمودة،**الخروج من التيه**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2003، ص 351.

كما وجهت انتقادات لعبد الله الغذامي باعتباره رائد النقد الثقافي العربي وللأسس النظرية التي بنى عليها نظريته النقدية من جوانبها المختلفة وأفكارها المتعددة:

- من حيث فكرة شيخوخة البلاغة العربية بعلومها الثلاث البيان والبديع والمعاني حيث ينطبق هذا الحكم على تدريس البلاغة وفق المناهج التقليدية وليس المناهج الجديدة التي تدرس السيميوطيقا.
- من حيث فكرة موت النقد الأدبي الذي ينتعش بفعل السيميائيات.
- من حيث أن النقد الثقافي يهتم بالأنساق الثقافية في ضوء مقاربة سياسية وإيديولوجية يتحول إلى أحكام سياسية وهذه محاولة لتسيس النقد الأدبي يقول الغذامي" "إن السياسي لم يصنع نفسه، وإنما هو وليد لثقافة نسقية، كما أن الشاعر لم يصنع نفسه وإنما هو وليد لثقافة، والنسق حينئذ هو مضمر ثقافي لابد من كشفه... وجدنا الحداثة العربية ضحية نسقية.[35]

. من حيث تعميم الأحكام على القصيدة العربية القديمة وتحكم البنية الفصولية فيها حتى أصبحت حقيقة طغت على المدح والهجاء وحتى في رفض الغزل ومحاربته وبذلك انتهت إلى عدم التمييز بين الأغراض الشعرية والمذاهب والخطابات.

- حصر النقد الأدبي فيما هو جمالي وبلاغي، والنص الأدبي جمال ومتعة قبل أن يكون رسالة ثقافية، وبالتالي لا يمكن تعويضه بالنقد الثقافي فهو خطاب ولغة وجمال ونص بعيد عن الأدب ونقده.

. استناد منهجية النقد على التأويل الذاتي المرتكز على أطروحات تاريخية أو غيرها قد تكون صحيحة أو خاطئة بمعنى أنها غير مستندة على حقائق علمية دقيقة اجتماعية أو نفسية أو جمالية أو أنثربولوجية ثقافية.

[35]- عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص 215.

. قراءة انتقائية لنماذج من الأنساق الثقافية تصدر عليها أحكاما واحدة كما هو الحال بالنسبة لشعر الصعاليك والخوارج والشيعة وغيرها.[36]

. محاولة الفصل بين ما هو مؤسساتي واجتماعي – اقتصادي أو إيديولوجي فكيف يمكن قراءة أي نص شعري خارج حدود المحيط الإيديولوجي أو خارج التاريخ.[37]

وهناك من رأى أن محاولة الغذامي مع النقد الثقافي هي محاولة حوّلت القراءة الثقافية إلى محاكمات أخلاقية بالمعنى الفلسفي وتراجعت بالنقد إلى النبش في السير والاستدلال بالنصوص على ضعة المتنبي ونرجسية أدونيس، مما يعيد النقد للعمل داخل الحياة الخاصة والتاريخ والوقائع المشكوك بصحتها".[38]

الخاتمة:

لقد قدّم لنا الغذامي – كمجتهد – قراءة مختلفة للأنساق الثقافية العربية معتمدا الحفر في بنيتها متتبعا نشأة الفحولة من العصر الجاهلي إلى الحداثة العربية التي تعيد إنتاج هذا النسق المضمر بلا وعي فجاءت مجددّة على مستوى اللفظ لا المعنى، هذا من جهة ومن جهة ثانية قدّم لنا قراءة للنقد في الثقافة العربية الذي وجده نقدا جماليا بلاغيا اهتم ويهتم بإبراز جماليات النص الأدبي دون القبحيات التي تلبست بلباس الجمالي ومررت من خلاله دون وعي ما أدى إلى العمى الثقافي، وما صناعة الطاغية والمستبد إلا وسيلة لصناعة الفعل الذي عزز في النسق قيما لا أخلاقية ترسّخت مع مرور الزمن حتى أضحت جزءا من "المضمر النسقي" الذي جعلنا نتقبله – الطاغية – كما تقبلنا الفعل دون اعتراض أو ثورة.

---

[36]– جميل حمداوي، المرجع السابق.

[37]– يوسف عبد الله الأنصاري، **لنقد الثقافي وأسئلة المتلقي**،جامعة أم القرى2008. nqu.edu.sa/page/ar/84250

[38] - حاتم الصكر، **حوارات**، مجلة العربي، الكويت 2008..

www.hatemlsagr.net/index.php

ولكن الغذامي بهذه القراءة وبهذا المنهج الثقافي القادر اليوم على تشريح النص الأدبي وتحليله وبما يتضمنه من إيجابيات لا يمكن أن يكون آخر ما أبدعه العقل البشري والباحث عن الأفضل خاصة أنه يقصي الفن والجمال والوظيفة الشعرية ولا يعترف بالبنية اللسانية والسيميائية، ويتعارض مع خصوصية الأدب وماهيته القائمة على الجمال والفن وبذلك تتشكل علاقة تنافر واغتراب بين الأدب والنقد الثقافي[39].ولكن هذا لا يمنع من القول أن الغذامي هو ذلك المثقف العربي الذي لا يهاب الجديد والمجهول من الأفكار، المعتز بالثقافة العربية الإسلامية وبخاصية التحرر فيها.

[39]– جميل حمدواوي، المرجع السابق.